

غزو واستغزاء آخر

رأيت فيما تقدم أن أول ثقافة قابلت الإسلام واصطدمت به هي الثقافة اليهودية، وقد كان لليهود في مجتمع المدينة، مكانة علمية وثقافية يمتازون بها عن العرب حولهم، ولذلك كان العرب ينظرون إليهم، على أنهم في مستوى علمي أعلى وأرقى منهم.

وقد أخرج الإمام أبو داود حديثاً^(١) جاء فيه: «كان هذا الحى من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود، وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم وكان يفتنون بكثير من فعلهم قبل الإسلام».

ومع أن الإسلام ارتفع بمستوى العرب الذين دخلوا الإسلام، وبعث فيهم روح الاعتزاز بدينهم، إلا أن هذا الاتجاه من العرب قبل الإسلام تجاه اليهود، لم ينقطع تماماً بدخولهم الإسلام، بل ظل الأثر النفسى مترسباً فيهم.. ولذلك رأينا عمر بن الخطاب مع جلالة قدره، ورسوخ قدمه، يحمل ورقات عن اليهود يذهب بها للرسول، فينهره، ورأينا المسلمين يتجمعون حول اليهود يسمعون منهم تفسير التوراة بالعربية، فينهاهم الرسول، ورأيناهم يسألون اليهود عن أشياء فيقول الرسول: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»..

ورأينا ما نقلته لنا كتب الأحاديث الصحيحة غير هذا من أحاديث أخرى، ذكرناها ووقفنا عندها نحللها، ورأينا اختلاف الصحابة أنفسهم، تجاهها، مما ذكرناه عن عبدالله بن عمرو ومن كان معه في اتجاهه، وعن عمر رضى الله عنهم جميعاً. ولكل وجهة..

وكانت النتيجة هذا الغزو الإسرائيلي الثقافى الذى حشده فى كتبنا أكابر

(١) ضحى الإسلام - ج ١ ص ٣٣٦ الطبعة الثانية وقد ذكر ابن خلدون ذلك أيضاً مع تحليله فى

مقلمته.

طبيون فضلاء منا، مما لا يزال ماثلاً فيما بين أيدينا من كتب التفسير وغيرها، يلوث ثقافتنا الأصلية..

وكان هذا من أخطر ما أصيبت به ثقافتنا منذ عهد طفولتها، وإن كان هذا كله لم يمس المبادئ والتعاليم، ولكنه جاء على الهامش، فيما يتصل بالتاريخ، أو ببعض الظواهر الكونية مما سبق ذكره..

وصار نهر ثقافتنا الواسع الهادر، يحمل الماء العذب الفرات، ويحمل معه كذلك عكارات ونفايات..

وتسير الأيام والسنون، ويخرج المسلمون من جزيرتهم حاملين الهدى والرشاد لمن حولهم شرقاً وغرباً، في بلاد سادتها حضارات وثقافات عريقة: فارسية وهندية، ورومانية، ويونانية، ووجد المسلمون فيها علماً ونظماً وفنوناً وأدياناً.. وجدوا مجتمعات حضارية لم يعهدوها في حياتهم بجزيرتهم.. وكانت معهم ثقافتهم وشخصيتهم الإسلامية يحرصون عليها وينظرون لكل جديد حولهم من خلالها.. يقيسونه بمقاييسها..

وكانوا هم الأقوياء الفاتحين المعتزين بدينهم وثقافتهم، فظلوا محافظين عليها يقبلون مما وجدوه أمامهم، مالا يتناقض معها، ويستفيدون مما لا ينقضها.. ومرت أيام الخلفاء الراشدين، وجاءت بعدها أيام الدولة الأموية، والشخصية الإسلامية العربية هي الشخصية السائدة.. والمسلمون العرب مشغولون بحروب وثورات داخلية وخارجية، إما لتوطيد حكم الدولة أو لزعرته، وإما لتوسيع رقعتها، ونشر الإسلام في بلاد لم يكن قد وصل إليها، حتى وصلت الرقعة الإسلامية إلى الأندلس غرباً، وإلى الهند والبلاد الجنوبية من روسيا الآن شرقاً، والدولة الأموية تؤكد على إبراز شخصيتها وثقافتها الإسلامية العربية، طوال مدة حكمها حتى اتهموها ظلماً بالتحيز المقوت للعرب.

وكانت البلاد التي فتحها المسلمون من الشمال الأفريقي والشام، والعراق وأرض فارس، بلاداً توج فيها الحضارة أو الثقافة اليونانية منذ أيام الإسكندر والرومانية والفارسية، وكانت للثقافة والعلوم اليونانية مراكز إشعاع ومدارس في

الاسكندرية وحران ونصيبين وانطاكيا والرها، وجنديسابور، حيث تلتقى بالفارسية والهندية، وقد تولت هذه المدارس نقل كثير من كتب اليونان إلى الشرق بلغتهم بواسطة النساطرة واليعاقبة في الشام، وعلماء مدرسة الاسكندرية وغيرهم.

وبذلك جاء الفتح الإسلامي، ووجد الحضارة والثقافة اليونانية لها أرضها، ولها حماتها كما وجدوا في فارس الحضارة والثقافة الفارسية، وجارتها الهندية، وفي كل من هذه الثقافات والحضارات أفكار وعلوم نظرية وعملية.. لم يعمل المسلمون على مصادرتها، بل تركوا لها ولرجالها المجال حيث كانت حرية الفكر متوفرة، ولقد كان من الطبيعي أن يحس المسلمون هذه الحضارات والثقافات، وما أتت به تحمله، وأن يبدؤوا - لاسيما علماؤهم - بالتعرف عليها وعلى علومها..

فأينا خالد بن يزيد بن معاوية يبتعد عن مجال الحكم ويتجه للعلم وخاصة الكيمياء، التي تحول المعادن إلى ذهب - كما فهم - ويتصل بمدرسة الإسكندرية لتعلم الكيمياء، فترجمت له بعض الكتب، وكان هذا حادثاً فردياً.. حتى جاءت الدولة العباسية بعد أن قضت على الدولة الأموية بمساعدة المسلمين الفرس، واستتب لها الحكم سريعاً واستقرت الأمور، وغلب العنصر الفارسي وأثر في حكمها لاسيما بعد سنين من قيامها.

وبدأ الخلفاء يتطلعون بواسطة من حولهم إلى التعرف على الحضارات والثقافات اليونانية والفارسية والهندية بشكل أوسع.. وكان لابد لهم من ترجمة كتبها بصورة أكثر فاعلية عما كان من قبل، فالتجھوا إلى علماء هذه المدارس، ليقوموا بالترجمة إلى العربية، فنقلوا إليها أهم كتب أرسطو وشروحا، بما فيها المنطق، وأهم كتب أفلاطون، وجالينوس في الطب، وغير ذلك مما أنتجه العقل اليوناني، كما ترجمت كتب فارسية وهندية، كمثمل كليلة ودمنة^(١)، وغيرها..

(١) ترجمها عبد الله بن المقفع من اللغة الفهلوية وقد قتل عام ١٤٢ أو ١٤٥ هـ وكانت منقولة من قبل من الهندية إلى الفهلوية وبواسطة الترجمة من الفارسية تأثر الشعر والأدب وغيرها. كما أثرت الثقافة الهندية في التصوف وغيره من الرياضيات والفلك، وكان العرب قد قاموا بترجمة الكتب الهندية بعد أن انصلوا بالهند، وعن طريق الهنود الذين جاءوا للبلاد العربية فتولى العرب الترجمة من الهندية.

حتى جاء المأمون فنظم أمور الترجمة، وراسل ملوك الروم ليمدوه بما لديهم من تراث ليعمل على ترجمته، فنشطت الترجمة واتسعت، ووجدت هذه المواد المترجمة إقبالاً عليها من المسلمين.. ليزدادوا علماً، وإحاطة بما لدى غيرهم..

وكان الجانب الذى عنى به المسلمون وحكامهم من هذا التراث هو الجانب العقلى والعملى كالمنطق والبحث عن موجد الكون، وتفسير مظاهره، والطب والفلك والرياضيات وما يشبه ذلك..

أما الجانب الأدبى وكل ما يتصل بالعاطفة فلم يعنوا به تماماً كغيره، لاختلاف المقاييس والمشارب فى هذا النوع من التراث. وإن كنا لا ننفى التأثير بهذا الجانب، أما الناحية الدينية فى هذه الثقافات فقد رفضوها.

وهذا أصبح لهذه الحضارات والثقافات - ولا سيما اليونانية - سوقها الرائجة لدى المسلمين وفى مقدمتهم حكامهم..

وكان المسلمون وهم أقوىاء به حين اتجهوا لهذا، وفى مقدمتهم حكامهم لهم الكلمة فيما يقبل، وما لا يقبل منها، وكانت غايتهم جميعاً الاستفادة مما لدى الغير من علوم نافعة، فالحكمة ضالة المؤمن، والحكام يريدون أن يرقوا بأمتهم.. وهذا دخلت الفلسفة والعلوم اليونانية سوق العلم الإسلامية، وأقبل العلماء على منطق أرسطو، وعلى مباحث الإلهيات وعلى الطب والفلك مما يتوقعون منه أن يوسع مداركهم ويزيدهم علماً يخدمون به دينهم أو حياتهم. وإن اختلفت مشاربهم.

وأتيح لأهل المذاهب والآراء المختلفة أن يعرضوا مذاهبهم، ويجادلوا عنها، فى جو من حرية الرأى، عنى الحكام بتوفيره للجميع..

وقد افتتن المسلمون بهذه التيارات الجديدة، وما فيها من علم وأفكار، سواء منها الفارسية ومشجعوها من البرامكة أو غيرهم بعد نكبتهم، أو اليونانية والهندية..

كما افتتنوا بمظاهر الحضارة التى وفدت عليهم كذلك.. وأصبح ذلك كله عندهم

«موضة» يتشحون بها سواء عن اقتناع أو لحب الظهور والتظرف من قبيل: «خالف تعرف» كما يحصل عندنا الآن فيذكر الأغاني «أن محمد بن زياد كان يظهر الزندقة والمجون تظارفاً»، فقال فيه ابن منذر

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عف
لست بزندق ولكني أردت أن توسم بالظرف

وقال غيره:

تزدق معلناً ليقول قوم إذا ذكروه زندق ظريف
فقد بقي التزدق فيه وسماً وما قيل الظريف ولا اللطيف^(١)

وهذا شبيه بما يحصل عندنا في هذه الأيام من بعض الناس - ولا سيما الشباب - من الجهر بآراء أو أعمال مخالفة للدين والتقاليد، أو من محاكاة الغربيين ليقال عنهم: إن لهم رأياً وأنهم متحضرون.. إلخ..

وهذا يدل على مدى تأثير الوسط الإسلامي بالثقافات الوافدة مع نزوع إلى الترف والمجون. على أن أثر هذه التيارات ظهر حقيقة في الأوساط العلمية بشكل مفيد وكبير غالباً، يتحدث عنه الأستاذ أحمد أمين في ضحى الإسلام^(٢) فيقول:

«كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين، وما زاد من أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية، فتسربت الثقافة اليونانية إليها وصبغت صبغة خاصة، كان لها تأثير في الشكل وفي الموضوع»..

وتحدث عن الشكل فقال: «إنه يرجع لتأثير المنطق اليوناني الأرسطي على أسلوب المتكلمين والفقهاء والنحويين».

ويحدث عن الموضوع فقال: إنها أثرت تأثيراً كبيراً في تعاليم المتكلمين..

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٤٩ مصدر سبق ذكره.

(٢) ص ٢٧٤.

ولا سيما لدى المعتزلة، وفي التصوف والفلسفة الإسلامية.. كما كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي..

ثم يعقب على ما بسطه من كلام في هذه الناحية فيقول^(١): وهذا هو الذى يعيننا:

«ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه، وزادوا فيه وابتكروا^(٢)، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب، وكان كثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية، فيختار من الأولى ما يتفق والثانية، ويؤلف منها مزيجاً لا هو يونانى بحت، ولا هو إسلامى بحت إلخ...».

وهذا يعنى أن المسلمين قد قاموا بعملية تشبه عملية التطعيم للأشجار بما هو نافع للتطعيم، حسب اجتهادهم، ليوجدوا نوعاً يجمع محاسن النوعين، فلم يستعملوا الثقافة اليونانية أو الفارسية للهدم، أو لتغيير المعالم الأصلية فى الثقافة أو الروح العربية الإسلامية، وإنما لخدمتها، ووقف علماءنا المخلصون سداً أمام مثالب التيار الغريب ودعاته، على حين لم يمنعوا ما فيه فائدة منه.

ولا يزال المنطق الأرسطى الذى نقله المسلمون هو المنطق الذى ندرسه الآن، وإن وقف ابن تيمية ومدرسته ضده وجاء «ديكارت» وفرنسيس بيكون» فعابوا هذا المنطق الأرسطى كابن تيمية، ووضعوا «المنطق الجديد» منطق الاستقراء والتجربة، ولا تزال الفلسفة الإسلامية المطعمة بالفلسفة اليونانية أو الهندية والفارسية والتي أنتجها فلاسفتنا الإسلاميون هى التى ندرسها، وهى التى دافع عنها دفاعاً حاراً علم من أكبر علمائنا السابقين، وهو ابن رشد فى كتابه «تهافت

(١) ص ٢٧٨.

(٢) وسبقوا العلم الحديث فى ابتكارهم ولاسيما فى الطب فاهتدوا إلى أن الأوبئة تنشأ عن تعفن، وتتسلل عدواها عن طريق الهواء والمخالطة، وسعوا الأمراض المعدية بالسارية وكانوا أول من عرفوا نغثت الحصاة فى المثانة، واستخدام المخدر فى العمليات، وشكل أظافر المصدورين، والبول السكرى والحصبة، واكتشفوا بعض العناصر، كحامض الآزوت والكبريت إلى غير ذلك مما تحدث به الباحثون فى أثر العرب فى نهضة أوروبا العلمية، وألفت فيه الكتب...

التهاقت»، الذى رد به على كتاب «تهاقت الفلاسفة» للإمام الغزالى، حين هاجم الفلسفة وبين زيفها.. وهكذا..

وقد استعمل علماءنا الأجلاء فى تلك العصور ما استفادوه من علم المنطق وغيره فى الرد المفحم على الذين تهجموا على الإسلام وقضاياه، حيث عاملوهم بنفس سلاحهم الهجومى، وكان هؤلاء فضل عظيم فى الدفاع عن الإسلام، حين تسلحوا بأسلحة الثقافة الوافدة، وردوا على الذين استعملوها للتهجم على الإسلام وكان من أبرز هؤلاء المعتزلة وإن لم يكونوا وحدهم..

الحياة الاجتماعية:

وبجوار التأثير بالعلوم، كان هناك تأثر آخر عن طريق الحياة الاجتماعية فى الوسط المتأثر بحضارة اليونان والرومان والفرس، وهو مجتمع جديد لم يألفه العرب، قبل أن يخرجوا من الجزيرة. ولا شك أن المعاشة والاختلاط بالغير يؤدى إلى نوع من امتزاج الثقافتين الإسلامية وغيرها فى الحياة الاجتماعية واقتباس مالمدى الغير مما يستحسن أو تدعوا الحاجة إليه». وقد رأينا معاوية وهو حاكم فى دمشق يتخذ من الحجاب ومظاهر الحكم، ما لم يتعوده المسلمون، ولما زاره الخليفة عمر، وأبدى ملاحظة عليه من هذه الناحية، إعتذر له معاوية بأنه فى بلاد تعودت ذلك فى حكامها الروم من قبل، وليس له إلا أن يفعل ذلك.. فسكت عمر وتركه وقال: «لا أمرك ولا أنهاك».

فى حين كان يحاسب الولاة فى جزيرة العرب على أقل من هذا.. ولاظن إلا أن مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد المفتوحة كانت متقدمة عما ألفه العرب فى جزيرتهم، مما جعل الفاتحين يأخذون من هذه المظاهر فى نمط وأسلوب حياتهم ما أعجبهم.

وكان ذلك تطعيماً لأسلوب الحياة لا يلحق ضرراً بجوهر الثقافة العربية الإسلامية.. وإن ألحق بها أخيراً مظاهر من الترف، قد يضيق بها الإسلام، مما جعل بعض العلماء والشعراء يركزون على الزهد والدعوة إليه، وعلى التصوف والعزوف عن الحياة كهجوم مضاد.

ولكن بعد هذا كله نقول: إن هذا الغزو الثقافي أو «الاستغزاء» مع ما صاحبه من غناء رفضه، قد أفاد المسلمين كثيراً، وإنه هياهم لكى يأخذوا مكانهم في صنع حضارة إسلامية، في شتى نواحي الحياة الفكرية والعملية.. دون التخلي عن ثقافتهم الأصيلة.. ولذلك كانت حضارة لها طابعها الإسلامي وشخصيتها الإسلامية، ولها أثرها العظيم بعد ذلك في الغرب وتقدمه علمياً كما نعرف.

ولذلك نمر سريعاً ولا نقف عند هذا «الاستغزاء» الذى كان بصنع المسلمين أنفسهم، ونقلهم له، وخرجوا منه سالمين، لنتنقل إلى دور آخر من أدوار الغزو الثقافى والحقيقى، الذى دبر له أعداء غزاة، وخططوا له، وساعدهم على السير في تنفيذ مخططاتهم ما أصاب المسلمين عامة من ضعف في الحكم، وما منيت به ثقافتهم تبعاً لذلك من ضعف المناعة بسبب حكامهم غير العرب، وقد سهل هذا لأعداء الإسلام والمسلمين أن ينفذوا إلى نفوس المسلمين وإلى ثقافتهم الأصيلة.. ويسلطوا عليها معاوهم على أمل أن تلفظ أنفاسها بعد أن أخفقوا في بقاء السيطرة على البلاد الإسلامية في الشام، وعادوا مقهورين إلى أوربا بعد قرنين من الزمان استولوا فيها على بلاد الشام..